

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي خاصّ بالعصر العباسي الثاني ، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوُّلٍ مقاليد الحكم من أيدي الفُرس إلى أيدي التُرك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية ، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغرق في الترف والتعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش في الضنك والبؤس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل — وما كان يُستقل — من الثقافات الأجنبية . مما هيأ لظهور فلاسفة عظام وعلماء بارعين في جميع العاوم اللغوية والبلاغية والتقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً ، وكيف أوْدعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّدون في الموضوعات القديمة والأخرى المُستحدّثة في العصر العباسي الأول صوراً مختلفة من التجديد ، تتحفّل بما لا يكاد يُحصى أو يُستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبتدعة . وظلّوا يُنمّون الشعر التعليمي وينظّمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثتُ بحثاً تحليلياً تاريخياً أعلام الشعراء في العصر ، وهم علي بن الجهم والبُحترى وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري ، أما ابن الجهم فكان داعيةً للمتوكل يصيح مهلاً مع كل عمل له ، وأروعُ أشعاره ما نظم في الاستعطاف وفي تصوير صلابة نفسه حين ادهمت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحترى الشاعر الرسمي في بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التي سادت حينئذ في الشعر ونقده وتذوقه ، مع ما سُخر

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقى الأسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته في وصف المعارك البحريّة ومظاهر الحضارة والعُمُران . وكان يقابله ابن الرومي ممثلاً النزعة التجديدية في الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع وأون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترنة ومأساة أبيه وجده في أشعاره ، وهي تنخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبري يُعنى بصنعة الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعدّ أول ناظم للهلجيات في العربية .

وعرضت لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزعتهم على طوائف متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراء لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراء هجاء عاديّ أو مرير ، وشعراء غزل عفيف أو ماديّ صريح . وشعراء لهو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ، وشعراء شعبيون . وحاولت أن أتحدث في كل طائفة عن خير من يمثلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحث النثر والتحام الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوراً كيف تعاونت بيئاتٌ مختلفة في وضع مقاييسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطاً واسعاً ، وتحول من مواعظ زهدية إلى مواعظ صوفيّة ، وأخذ ينشأ نثر صوفيّ شعبيّ يعتمد على القصص والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامة . وتكثر المناظرات في جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجمعُ أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية في صور متقابلة من القدح والمدح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كتبها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيقُ رُقعتهما على أن يتكاثر فيها التأنيق والتنيق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبي جميعه .

ويبحثُ أعلام الكتاب حينئذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصوّليّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حمّيد ، وأبو العباس بن ثَوابة . وكان الصوّليّ أول رئيس

لديوان الرسائل في العصر، وعنه كانت تصدر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات، وهو يُعْنَى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحُسْن جرسها في الأداء. وبالحاظ أكبر كتّاب العصر غير منازع، وكتاباتهِ «رأَة صافية» لعصره بجميع طبقاته، مع ما يَسْرَى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة، ومع ما تَمُوج به من أسلوب الازدواج الرائع. وقد عرضت خمسة ألوان من فنّه النَّشْرِي، هي المناظرة، والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية، والقَصَص، والنوادر. وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبي بعده، وهو يمزج في كتابه: «عيون الأخبار» بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب. وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مثبتاً أنها أقواس وهمية، فقد استحالت جميعها في كتابه ثقافة عربية، ولم يَعدْ يرتفع صوت للشعبوية. ويتشبه ابن قتيبة كثيراً بالحافظ في تمسكه بالواقع ومزج الهزل بالجِدِّ وفي استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين. وما زال سعيد بن حميد يَرْفَى في الدواوين، حتى أَسْنَدَ له ديوان الرسائل، وكان يُعْنَى بالتدقيق في ألفاظه ومعانيه، نافذاً من خلال حَيْلٍ عقلية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة، مع تقطيعات صوتية تُضَفِّي على أسلوبه جمالا. ويَلْمَعُ اسم أبي العباس بن ثَوَابَة، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل، وكان يكثر من التأنق والتكلف في كتابته، مما جعله يَسْتَعْدِم فيها أحياناً السجع، مع العناية بالتصوير، ومع وزن الكلام بمعيّار بياني دقيق. والله وَلِيُّ الْهُدَى وَالتَّوْفِيق.

القاهرة في أول مايو سنة ١٩٧٣ م.

شوقي ضيف